«لن يبرح هذا الدين قائمًا . . . حتى تقوم الساعة».

(صحيح مسلم رقم [١٧٢/ ١٩٢٢]).

«لا تُفَضِّلُوا بينَ أنبياءِ اللهِ».

(البخارى رقم [٣٤١٤]، ومسلم [١٥٩/ ٢٣٧٣]).

- ١ -

لقد تعرضنا لثلاث عرائض اتهام يرفعها الغرب ضد الإسلام: حقوق الإنسان، والديمقراطية، والمرأة. حان الوقت الآن لمناقشة بعض المطالبات التى يقدمها العالم الإسلامى للغرب. بما أن الإسلام دين، والدين هو البعد الآخر لهذا العالم، فينبغى أن نبدأ بأمنيتين ـ لهما صبغة دينية ـ يتمناهما المسلمون. أولاهما: الاعتراف بمحمد، وثانيتهما: إسقاط الألوهية عن المسيح. ويتبع ذلك موضوع ذو صبغة عملية، ألا وهى العنصرية.

- ٢ -

غالبًا ما لا نملك تفسيرًا لمشيئة الله. ولكن من الملائم أن يتساءل، ليس المسيحيون وحدهم بل كذلك المسلمون، خاصة فى موطن هيجل (ألمانيا): لماذا جعل الله تاريخ الدين كما حدث؟.

يمكن للمسيحيين أن يتساءلوا: لِمَ كان ميلاد المسيح فى الشرق الأدنى على حدود الإمبراطورية الرومانية؟ ولماذا ولد المسيح يهوديًا يتحدث الآرامية؟ ويطرح المسلمون أسئلة مشابهة: لماذا اختير محمد ﷺ الأمى بالذات فى بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى ليكون رسول الله، حاملًا الرسالة والدين الخاتم بالعربية لينشرها فى العالم كله؟.

وبما أننا لا نستطيع الجزم بتفسير مشيئة الله وحكمته، فإن إجابات مثل هذه الأسئلة هى ذات طبيعة تأملية. ليس من قبيل الخروج عن الدين أن يجتهد المرء ليتوصل إلى إجابات، بل على

النقيض، فإن الله يأمر ـ من خلال النصوص التى وردت فى القرآن ـ المؤمنين بالتفكر والتأمل وإعمال العقل (القرآن هو النص المقدس الوحيد ـ بين الأديان الثلاثة ـ الذى يحث على ذلك).

هناك مجموعة من الأسباب المعتبرة ـ من وجهة نظرى ـ للظروف التاريخية التى أحاطت ببعثة الرسول العربى محمد ﷺ. فلنبدأ بالجغرافية: كانت بلاد العرب فى القرن السابع الميلادى تقع خارج منطقة نفوذ القوتين العظميين: الإمبراطورية البيزنطية، أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية ذات الديانة المسيحية، وعلى رأسها الإمبراطور هيرقليوس الأول من ناحية، وبين الإمبراطورية الفارسية الساسانية التى يحكمها الشاه كسرى الثانى من ناحية أخرى، ولقد شهد عصر هذا الحاكم صعود نجم الديانة الفارسية.

فإذا كان الرسول قد بعث بهذا الدين الجماعى الجديد ـ الإسلام ـ فكيف كانت تتاح له الفرصة داخل هذه الإمبراطورية أو تلك؟.

لم يكن هناك موقع جغرافى أفضل من شبه الجزيرة العربية، وبالذات فى الحجاز، هذه المنطقة التى تخرج عن نطاق نفوذ الإمبراطوريتين فى ذلك الوقت، ليتمكن الإسلام من تكوين كيان أيديولوچى جديد قبل أن تنتبه إليه إحدى القوتين، ناهيك عن التفكير فى التدخل والهجوم على هذا الكيان الوليد. فعندما أرسل الرسول ﷺ عام ٦٢٨ مبعوثين حاملين رسائله إلى حكام المناطق الواقعة حول الحجاز، كان الوقت قد تأخر على مجرد التفكير فى محاولة إجهاض هذا الكيان الصاعد.

ولكن بالرغم من بُعد الحجاز عن متناول أيدى السلطتين العظميين، فإنه كان يتمتع من وجهة نظر أخرى بموقع چيوإستراتيچى بالغ الأهمية، كما سيتضح فيما بعد عندما تنطلق الفتوحات منه إلى أنحاء العالم كافة، حيث يتمتع بموقع وسط يبعد عن المغرب وإنجلترا بالمقدار الذى يبعد به عن الهند والصين.

وهناك سبب معقول ومقبول منطقيًا لنزول القرآن باللغة العربية. ففى ذلك الزمن كانت اللغات المتداولة هى الرومانية واليونانية والفارسية والعبرية. وكانت هذه اللغات ـ وهى لغات الديانات السابقة ـ قد استنفدت فى ذلك السياق وباتت جامدة بأحكامها ومفاهيمها.

ولقد كانت الديانة الجديدة والرسالة التى تحملها والتى ستأتى بتحول پرجماتى جديد إلى العالم، فى حاجة إلى لغة جديدة على المستوى الدينى والفلسفى، لغة لم تستنفد بعد، يأتى بها القرآن. وأهمية ذلك تتضح إذا ما نظرنا إلى ترجمات للقرآن يقوم بها مستشرقون حسنو النية، عندما يقحمون عليه مفردات تعبر عن الخلفية المسيحية، الدينية والفلسفية.

كانت اللغة العربية التى تتحدث بها قبيلة قريش بمكة قد تطورت فى القرن السابع الميلادى، حتى صارت لغة فصحى بليغة تصلح لأن تكون وسيلة ووعاءً لغويًّا للرسالة الجديدة. ولكى نتمكن من فهم هذا، لا بد لنا من التعرف عن قرب على هذه اللغة الدقيقة، لذلك سأسوق بعض الأمثلة الدالة: فاللغة العربية قادرة على التعبير عن مقولات متجددة المعانى، ومن الممكن كذلك أن تعبر هذه اللغة بصيغة الماضى عن أشياء مستقبلية يقينية الوقوع، كما لو أنها قد حدثت فعلًا. وأخيرًا يمكن أن نشتق من كل فعل عربى بضعة مشتقات قد تتجاوز العشرين، سواء تحقق معناها فى الحقيقة أولا. وهذا يتيح للعربية أن تكون مهيأة لتفكير فلسفى تأملى وعلمى فرضى.

ولقد كان توقيت الوحى القرآنى ذا مغزى عميق؛ لذا فقد بات واضحًا منذ القرن السادس الميلادى أن المسيحيين واليهود المتفرقين فى جميع أنحاء العالم، عاجزون عن تصحيح التحريفات التى ألحقوها بدياناتهم، وبخاصة تصور شعب الله المختار عند اليهود، ثم عند الكنيسة التى اعتبرت أنها حلت محل اليهود كشعب الله، والطبيعة الإلهية للمسيح عند المسيحيين.

- ٣ -

ولقد ظهرت دراسات مسيحية جديدة تم تدوينها[1] تحوى فهم - يهودى - مسيحى لطبيعة المسيح يتطابق مع المفهوم الإسلامى. فلم يجد هذا الفهم المسيح - الذى لم يطابق نفسه بالله أبدًا ولم يستخدم صيغة «أنا» عندما كان يعنى الله - إلا رسولًا يهوديًّا إصلاحيًّا مهمًّا. وهذا يماثل ما جاء بالقرآن فى الآية ٧٥ من سورة المائدة.. ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾، ولم تعرف المسيحية الأولى فكرة الثالوث، أو حتى تلميحات عنها.

ولقد تمكن الباحثون منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، من إثبات أن هذه الآية (بالإضافة إلى الإصحاح الذى يتحدث عن الزانية - التى قال فيها المسيح: من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولًا بحجر - فى إنجيل يوحنا) تعد من حالات التزوير البينة والواضحة والكاشفة جدًا فى العهد الجديد[2]. وإنك لتجد - على سبيل المثال - فى الطبعة الكاثوليكية للعهد الجديد التى أحتفظ بها (صرح بطبعها أسقف مدينة روتنبورج عام ١٩٤٠) هذه الفقرة موضع الخلاف

---

(١) انظر: لودمان (١٩٩٤)، وشنر (١٩٨٨).

(٢) منذ ذلك الوقت يبدأ الإصحاح الثامن من إنجيل يوحنا فى بعض الطبعات الإنجيلية للعهد الجديد بدءًا بالآية ١٢، بعد انتهاء قصة الزانية.

فى الرسالة الأولى ليوحنا وهى بين قوسين، وإشارة فى الهامش تقول: «هذه الفقرة موضوعها ومضمونها صحيح، ولكنها إضافة وتكملة متأخرة».

ولقد كان غالبية الأساقفة فى الغرب المسيحى وكذلك فى الشرق المسيحى حتى القرن الرابع، متفقين مع رأى القس السكندرى «آريوس ـ Arius» (٢٥٦ ـ ٣٣٦) القائل بأن المسيح مخلوق مباشر من الله (ولذلك فهو مميز على سائر البشر)، ولكنه ليس الله، كما أنه لا يتمتع بحياة أبدية. وكان حتى هذا الوقت ـ أى قبل القرن الرابع ـ كل من يعتنق الإيمان الذى أقره مجمع نيقيه فيما بعد فى عام ٣٢٥، يجازف بأن تلصق به تهمة التجديف.

ومنذ القرن الرابع الميلادى، أصبحت مناقشة طبيعة المسيح باحتمالاتها الأربعة من الأمور الشهيرة فى كلٍّ من القسطنطينية والإسكندرية، وهذه الاحتمالات الأربعة هى:

ـ المسيح ذو طبيعة واحدة: هذا الفكر الذى يعتنقه ويمثله إلى الآن القبط والأرمن(*).

ـ إنسان فقط: هذا الفكر يعتنقه المسيحيون اليهود والآريوسيون (نسبة إلى آريوس الذى قال بآدمية المسيح)، والموحدون.

ـ ذو طبيعتين منفصلتين: إله وإنسان. الفكر الذى يقول بالطبيعتين، والذى يعتنقه «النسطوريون ـ Nestorians».

ـ ذو طبيعتين مختلطتين: إله وإنسان ـ الفكر الذى ثبَّت أركانه منذ القرنين الرابع والخامس الميلاديين.

وتكتسب الفكرتان الأولى والثانية أهمية فى التاريخ الفكرى؛ لأن لهما امتدادًا فى الإسلام وفى النقد الموجه لصورة المسيح المعاصرة. لقد تطورت المسيحية من خلال خلافها مع فكر آريوس الذى يقول: إن الحديث عن كون المسيح ابن الله، ما هو إلا حديث بشكل مجازى.

ولقد كان المجمع الأول الذى عقد فى نيقيه فى الفترة من ١٩ يونيو حتى ٢٥ أغسطس عام ٣٢٥ معلمًا فارقًا فى تطور المسيحية؛ لأنه عارض تمامًا فكرة آريوس عن المسيح، وأقر أن المسيح من جوهر الآب، وأنه ولد ولم يُخلق، وأنه يتساوى فى الجوهر والكيان مع الإله الآب.

لم يمنع هذا من انتشار الأريوسية فى الفترة (٣٣٧ ـ ٣٦١)، حتى صارت الفكر الرسمى

(*) يعتبر الكاثوليك والبروتستانت ذلك الفكر هرطقة ـ (المترجم).

لبيزنطة، والفكر المسيطر لقرون عديدة على مسيحية الشعوب الچيرمانية(*). ولكن بعد ذلك اكتسب الفكر الذى أقره مجمع نيقيه قوة كبيرة، وتوطد منذ عام ٤٥١ بعد انعقاد المجتمع الكنسى الرابع حين أدانت الكنيسة الفكر القائل بطبيعة واحدة للمسيح وقالت بنقيضه وهو فرضية وجود اتحاد بين المسيح والله، والاثنين فى المسيح «غير مختلط وغير منفصل»، وهذه المقولة التى تبدو متناقضة، ظلت إلى يومنا هذا الدين الرسمى المعترف به كاثوليكيًا.

وفى هذه الأثناء، ظهرت ـ بتأثيرات من فكرة الثالوث فى الميثولوچية المصرية والأفلاطونية السكندرية الجديدة ـ ظهرت فكرة الثالوث، الآب والابن الروح القدس.

وبتأثير من موضة لاهوت الروح، كان المجمع الثانى فى القسطنطينية قد شخص فكرة «الكلمة ـ Logo» فى عام ٣٨١، وبهذا تسللت تصورات هلّينية(**) إلى المسيحية، واكتسبت من خلال ترسيخها لفكرة الثالوث موقعًا مسيطرًا.

لقد كان المجمع الكنسى الأول فى نيقيه ـ كما نعلم اليوم ـ أهم المجمعات على الإطلاق حتى المجمع ٢٢، الذى عقد فى الڤاتيكان القرن الماضى. ولكن ذلك المجمع البالغ الأهمية، لم يدع لعقده البابا أو أسقف روما، ولكن دعا لعقده حاكم وثنى غير معمد ولا علم له باللاهوت، هو الإمبراطور قسطنطين الكبير!. ولم يتم هذا المجمع فى كاتدرائية نيقيه، ولكن فى مقر الإمبراطور الصيفى، ولم يرأس هذا المجمع أحد من رجال الدين الحاضرين. كما أن الإمبراطور هو الذى قدم اقتراح الصيغة القائلة بأن جوهر الله هو جوهر المسيح، وأنهما متماثلان. وهذا الاقتراح لم يصدر عن اهتمام دينى، ولكن رغبة منه فى بعض الاتفاق الدينى الداخلى بعد سنوات طويلة من الخلافات الدينية الحادة. ولقد رأى القيصر أن صيغة (المسيح = الله) صيغة مناسبة لحل الخلافات، ولم يفكر فى كونها مُحرَّفة، فالأباطرة الرومان كانوا كثيرًا ما يحبون وضع أنفسهم فى مرتبة مساوية للآلهة.

لا تبعد اسطنبول كثيرًا عن نيقيه (اسمها الحالى إزنك). وكلما ذهبت هناك، أصابتنى رعدة من التفكير فى نتائج ما وقع فى هذا المكان عام ٣٢٥. فلم تتم مناقشة الأمر فى هذا المجمع بصراحة، ولكن تم فرض الرأى الإمبراطورى، وبذلك أصبح عندنا أمر إمبراطورى نتيجة لوجود خلافات وصراعات قوى، وليس رأيًا مبنيًا على تفسير النصوص المقدسة.

بعد ذلك، تم القضاء السلطوى بالتدريج على الكتابات التى تعارض هذا الرأى، كما تم

(*) دعا قسطنطين إلى مجمع ثانى فى نيقيه عام ٣٢٧، صاغ فيه آريوس عقيدة جديدة، ثم دعا قسطنطين إلى مجمع ثالث فى صور عام ٣٣٤، أدان اثناسيوس (الذى شارك فى صياغة عقيدة نقية) وعزله ـ (المترجم).

(**) الثقافة والحضارة الهلينية هى ثقافة وحضارة الإغريق ـ (المترجم).

إلغاء فكر الآريسيين والمسيحيين اليهود من ذاكرة الناس تمامًا. وتم قطع أواصر الصلة تمامًا بين المسيحية واليهودية. وبناءً على ما سبق من رفض بولس إجراء عملية الطهارة لمن يعتنق المسيحية(*)، ورفضه للشريعة فى رسالته إلى مؤمنى غلاطية، قامت قطيعة لاهوتية مع فكر التوحيد السامى.

لقد تم الإعلان عن الله! وبذلك أصبح وجود الكنسية المقدسة واضحًا ومسيطرًا. وأخذ المسيحيون ينظرون إلى اليهودية على أنها مجرد تمهيد للمسيحية، وعَدَّ اليهود المسيحية هرطقة وزندقة ومروقًا عن اليهودية. ولم يرد فى الفكر المسيحى بعد ذلك لقرون طويلة محاولة لتصحيح ما جاء فى إزنك عن طريق مراجعة المسيحية والفكر المسيحى لنفسه. بالعكس، أصبح هذا الفكر المسيحى مطالبًا بحماية نفسه فازداد تطرفًا.

ولذلك، كان لا بد أن تأتى إرهاصات إعادة إحياء الفكر التوحيدى الإبراهيمى من خارج هذه المعارك، من بلاد العرب، على يد رسول عربى يعيد دين إبراهيم وموسى وعيسى، يعيد دين الله كما أراد له وكما ينبغى له.

هذا يفسر مكان وزمان ومضمون الرسالة التى بعث بها محمد، والتى ورد فى القرآن عنها فى سورة الأحقاف الآية ٩: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾. لقد كان محمد آخر الرسل، هدف رسالته واضح: إعادة الوحدانية النقية، الإيمان بالله الواحد، دين إبراهيم، الدين القيم. هذا الدين الذى يتطابق مع الفطرة الإنسانية، ولذلك فقد كان محمد يعلم المسلمين بناء على ما ورد فى القرآن:

- الله واحد، ليس كمثله شىء.
- يرعى العالم، فهو قيوم السماوات والأرض.
- يمكن التعرف عليه من خلال الرسالات والكتب السماوية.
- واجب الإنسان أن يسلم وجهه لله ويطيع أوامره.
- يبعث الله الناس بعد الموت، وأن الآخرة حق، وعندها يحاسب البشر ويجزون على أعمالهم.

فالإسلام يرفض رفضًا تامًا وغير قابل للمساومة أو للحلول الوسط، فكرة الثالوث المقدس والتجسيد. لقد ارتكزت محاولة الإسلام فى القرن السابع الميلادى لتصحيح المسيحية

(*) رغم وجود النص التالى فى العهد القديم من الكتاب المقدس: قال الرب لإبراهيم: هذا هو عهدى الذى بينى وبين ذريتك: أن يختتن كل ذكر منكم ـ سفر التكوين: ١٧ (٩ ـ ١٠).

التى توطدت أركانها فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين، بأن وضع المسيحية المستقاة من القرآن فى مقابلها، وصور القرآن المسيح كما يلى:

- إن المسيح خُلق مثله مثل آدم، والآيات الدالة على ذلك تجدها فى سورة آل عمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾، وكذلك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾، وكذلك فى سورة المؤمنون: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾، وكذلك فى سورة الإخلاص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾﴾.

- جاء المسيح بولادة إعجازية من مريم العذراء، كما ورد فى سورة آل عمران الآية: ٤٧(*).

- جاء المسيح ليؤكد ما سبقه من دين ويعمل على تحليل بعض محرمات، كما ورد فى سورة آل عمران: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾.

- وهو رسول أتى بمعجزات بإذن الله، كما ورد فى سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

ومثله فى رسالته مثل مجموعة أخرى من الرسل، كما جاء ذكر ذلك فى الآية ١٣٦ من سورة البقرة، والآية ٨٤ من سورة آل عمران، والآية ٨٥ من سورة الأنعام.

- ليس شخصًا إلهًا فى ثالوث، وجاء هذا فى سورة النساء ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ ۚ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۘ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾،

(*) ليس كل المسيحيين فى أوروبا وأمريكا يؤمنون بالولادة الإعجازية للمسيح بدون أب - (المترجم).

سورة المائدة ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾،

وكذلك سورة التوبة ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

ـ المسيح عبد الله ورسوله وليس ابنه.

ـ لم يلق حتفه صلبًا، وجاء ذلك فى سورة النساء ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾.

أما فيما يخص النقطة قبل الأخيرة، فإن أىَّ مسلم لا يردد سورة أكثر من ترديده لسورة الإخلاص ـ هذا إذا ما استثنينا سورة الفاتحة ـ والتى استنادًا إلى كلام الرسول تعادل ثلث القرآن. وهذه السورة رفض موضوعى وقاطع لما أقره مجمع إزنك (نيقية) الكنسى:

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾.

ولقد أيقن الكثير من المسيحيين فى العقدين الأخيرين من هذا الزمن خطأ مقولة أن المسيح ابن الله، ولقد صاغ الفيلسوف كير كجارد هذا الأمر بحدَّة لا يضاهيه فيها أحد عندما قال: «إن المأساة الأساسية للمسيحية هى الدين المسيحى نفسه، أى وعظ الناس بفكرة الرب ـ الإنسان». لأنه بهذا يتم حذف الفارق النوعى لطبيعة الأشياء بين الإنسان والإله. ولقد ملك هذا الفيلسوف الدانماركى من الشجاعة ما جعله يقول: «إن فكرة الإله ـ الإنسان هذه جعلت المسيحية فى غاية الوقاحة، فهى تخاطب الإله بأنت (أى بلا صيغة احترام) كما لو كان أحد الأقارب»[٣].

(٣) كير كجارد ص ٦٠/ ١٥٩.

أما بالنسبة للنقطة الثانية، أى الصلب، فلم تكتسب أهميتها إلا من خلال بولس الرسول، وذلك على أساس نظرياته القائلة بإرث الخطيئة وضرورة الخلاص والموت للمخلص، وكلها تصورات لا يمكن جمعها أو اقترابها من صورة الإله فى الإسلام.

فالإسلام يعلمنا قبل أن يصدر يورجى مولتهان كتابه «الرب المصلوب» بتلك الآيات من سورة النساء: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾. إذا ما قرأنا هاتين الآيتين قراءة متمعنة ومتأنية مدققين فى الكلمات، تقول هذه الآيات إن المسيح لم يمت مصلوبًا، ومما يؤيد هذا العرض القرآنى لمسألة الصلب، أن الأناجيل الأربعة تختلف فى مسألة الصلب بشكل لا يجعلنا نصدق أيًّا منها أو نثق بها. أما أن المسيح لم يوثق فى الصليب بل سمر، فهذه الرواية عرفت أول ما عرفت فى القرن الثالث الميلادى، خاصة من خلال ترتوليان (١٦٠ ـ ٢٢٠)، ولكن ليس على أساس نص وارد فى الأناجيل، بل على الآيات ١٧ ـ ١٩ التى وردت فى المزمور ٢٢: «ثقبوا يدى ورجلى. صرت لهزالى أحصى عظامى... يتقاسمون ثيابى.. وعلى لباسى يلقون قرعة».

وبطبيعة الأمر لم يكن ترتوليان ليعلم بوجود الكفن الذى يصور عملية الصلب. ولقد ثبت أن هذا الكفن قطعة مزورة من القرن ١٣ أو ١٤ [٤]، كما تعترف الكنيسة الكاثوليكية منذ عام ١٩٨٨.

إذن، يمكننا أن نقول إن الصلبان وعليها المسيح والتى تشحذ خيالنا ما هى إلا تخيل، خاصة أن هذه الصلبان لا تتطابق مع الصلبان التى كانت شائعة فى عهد المسيح.

ويمكننى بطبيعة الحال أن أتفق مع پول تشفارتزناو، الذى ذكر أن القرآن احتجاج على المفهوم المسيحى للصلب[٥]. وذلك فى كتابه «علم القرآن للمسيحيين».

لقد استطاع بولس الرسول أن يحول الفشل الذى ذاقته جماعة المسيحيين الأوائل إلى عملية إنقاذ وخلاص، وجعل من الصليب رمزًا لها. وبذلك وضع الصليب فى مركز الإنجيل المقروء والذى يعظ به، وليس المكتوب، حتى صار الصليب علامة الانتصار المسيحية. ولقد أدت

(٤) بناءً على طريقة اختبار الإشعاع الكربونى، فإن الكفن يعود إلى الفترة ما بين ١٢٦٠ ـ ١٣٩٠، (FAZ تاريخ ١٤/ ١٠/ ١٩٨٨).

(٥) تشفارتزناو (١٩٨٢)، ص ١١٠.

نظرية الخلاص هذه إلى إحداث فرقة عظيمة؛ لأن كلًّا من اليهود والمسلمين عَدُّوها تجديفًا، فكيف يواجه الرب تصورًا خاطئًا بولادة ابن له، ثم التضحية القاسية المهينة بهذا الابن؟!

ولقد ظل المسلمون متمسكين طيلة القرون بما ورد فى القرآن عن المسيحية ونبيها عيسى، حتى أولئك المسلمون المحدثون و«المسلمون بالميلاد»، لا يمسون شيئًا واحدًا: التصحيح القرآنى لصورة المسيح التى وردت على المسيحية لاحقًا فى وقت لاحق ومتأخر، وليس فى بدايات المسيحية.

* * *

ومجمل القول: إن المسلمين والمسيحيين يشكون اليوم معًا ـ من أن أوروبا تعانى من الإلحاد، والاغتراب عن الكنيسة واللاأدرية، وكذلك الهروب إلى ديانات خاصة غير مفهومة ومتقوقعة على نفسها من فلسفة حب الإنسان إلى الديانات التى تقدس الربات والديانات ذات الصبغة النسائية والبوذية؛ لأن المسيحيين والمسلمين فى قارب واحد فى خضم هذا البحر الهائل المعاصر من العداء للدين والشديد المادية.

ولكن هل من الواضح للمسيحيين أن هذا التطور السلبى فى العصر الحديث شديد الصلة بما حدث فى إزنك (نيقيه)؟ وأن الوضع اليوم ما هو إلا نتيجة متأخرة لما ألم بالمسيحية فى إزنك؟ وقد كتب محمد أسد ـ أبرز المسلمين الأوروبيين فى القرن العشرين فى كتابه الصغير المهم «الإسلام فى مفترق الطرق» عام ١٩٣٤: إن أهم العوامل الفكرية التى تعوق التجديد والإحياء الدينى فى أوروبا، هو الرؤية المعاصرة لطبيعة المسيح على أنه ابن الرب. فالمفكرون الأوروبيون ينفرون غريزيًا من صورة الإله التى تروجها تعاليم الكنيسة. ولكن هذا هو التصور الوحيد المألوف لهم، ولذلك بدءوا برفض وإنكار صورة الرب ومعها كافة الديانات»[٦]. فهل إزنك هى جذر الإلحاد؟.

وبالنظر إلى المرارة والتوترات التى حكمت تاريخ العلاقات المسيحية ـ الإسلامية، وعدم إمكانية توحيد آرائهم حول المسيحية، فقد تم إعلان الكنيسة الكاثوليكية عن تخليها عن عَدِّ الإسلام عدوًا لها فى المجمع الڤاتيكانى الثانى عام ١٩٦٤، وتم تكوين لجنة بابوية لشئون العلاقات مع الديانات غير المسيحية، وضمت هذه اللجنة رجال دين على دراية واسعة وعلم

(٦) أسد: الإسلام فى مفترق الطرق، ص٥١، ٥٢.

غزير بالإسلام، ويكنون له بعض الإعجاب. وفى ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٥، أصدر البابا بولس السادس المنشور البابوى الذى حمل عنوان «Nostra Aetate»، وقد جاء فى هذا المنشور أن الكنيسة «تحترم المسلمين الذين يعبدون الله الحى، الخالد، الرحيم، القوى، خالق السموات والأرض».

ولقد طالبت هذه الوثيقة المسلمين والمسيحيين بنسيان عداوات الماضى. وعليهم أن «يجتهدوا للتوصل إلى تفاهم وفهم متبادل»، و «أن يعملوا سويًّا لحماية السلام وإقرار العدالة الاجتماعية، ومن ثم حماية الأخلاق وسلام وحرية البشر كافة»[٧].

وفى ظل هذه التوجهات، ومن منطلق هذا الفكر، توجه البابا يوحنا بولس الثانى فى ١٩ / ٨/ ١٩٨٥ بخطابه إلى الشباب المغربى المجتمع فى ستاد الدار البيضاء. ولقد ردد فى أثناء الخطاب كلمات تكاد تكون هى ذاتها كلمات الآية التى وردت فى القرآن، والتى تُعَدُّ الإعلان القائل بالتعددية الدينية والتسامح فيها، وتلك الآية هى ٤٨ التى وردت فى سورة المائدة، وقال: «إننا نؤمن بنفس الإله، الإله الواحد»[٨].

لقد وضعت الكنيسة الكاثوليكية بمبادرتها هذه لتطبيع علاقاتها مع الإسلام نفسها فى طليعة العالم المسيحى قبل المجلس الكنسى العالمى وقبل كنائس مسيحية أرثوذكسية أخرى. وفى كافة الأحوال، فإن الڤاتيكان قام بخطوة مهمة واحدة فقط على هذا الطريق؛ لأن المنشور البابوى وخطاب البابا فى الدار البيضاء تجنبا تمامًا ذكر رسول الإسلام، ولذلك السبب يتفق كلٌّ من هانزكونج والأب مايكل ليلونج على أن الكنيسة لا تزال بعيدة تمامًا عن استخلاص النتائج اللاهوتية المترتبة على المنشور البابوى[٩]. ويتساءل أولريخ شون: «لماذا لا يتجرأ أحد على ذكر محمد بكلمة واحدة (طيبة)؟»[١٠].

من الواضح أن الكنيسة لا تزال تحرم محمدًا من إعادة الثقة به وتصحيح صورته ورد الاعتبار له؛ لأنها لا تزال أسيرة إنكارها له. ولن يجرؤ أىُّ شخص من المعسكر المسيحى، حتى وإن كان يرفض فكرة أن الإسلام عقيدة مضللة وأن محمدًا دجال ومحتال، لا يستطيع أن يتخيل أن يعترف بالقرآن ككتاب مقدس، مثله مثل الكتاب المقدس؛ لأن الاعتراف بمحمد رسولًا،

---

(٧) مقطع من ليلونج ص١٣، ١٤.
(٨) مقطع من ليلونج ص١٨ ـ ٢٠.
(٩) ليلونج، ص٢٤.
(١٠) شون فى Kirste ص٣٦.

أى وعاء لوحى الله، يعنى ضمنًا الاعتراف بالقرآن الكريم ككتاب مقدس والوصول إلى هذه الخطوة، يتطلب دراسة واسعة وتعاملًا حميًا مع القرآن.

يغفل الغرب عن حقيقة أن الإسلام يهدف إلى أن يعيد المسيحية لتقف على قدميها، بدلًا من الوقوف على رأسها، وأن الإسلام يمكن أن يكون ذا نفع هائل لإعادة الصحة إلى الحضارة الغربية. ولكن هذا ليس مقصدى هنا، ولكن ألا تستدعى مجرد أصول المعاملة المهذبة واللياقة، عدم تجاهل رسول يؤمن به ما يزيد على مليار إنسان ويحترمونه؟[١١].

* * *

(١١) تشفارتزناو ١٩٩١، ص ٥٠٤.